دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	نحن والاستشراق: ملاحظات نحو مواجهة ايجابية
المصدر:	المستقبل العربى
الناشر:	مركز دراسات الوحدة العربية
المؤلف الرئيسي:	أصطيف، عبدالنبي
المجلد/العدد:	مج 6, ع 56
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1983
الشهر:	أكتوبر - تشرين الاول
الصفحات:	20 - 39
رقم MD:	55800
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الولايات المتحدة الامريكية، الاستشراق والمستشرقون، العالم العربي، الثقافة العربية، التراث الاسلامي، اوروبا، التبعية الثقافية، المثقفون العرب، الجامعات والكليات، التعريب، مناهج البحث، التعددية الثقافية، المعارضة السياسية، الصهيونية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/55800

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

نحن والاستشراق: ملاحظات نحو مواجهـــة ايجابيـــة (*)

عبد النبي اصطيف

كلية سانت انتوني ـ جامعة اكسفورد .

مقدمـــة

ربما كان اخشى ما يخشاه صاحب هذه السطور من ان يؤدي ظهور كتاب **الاستشراق**[1] للدكتور ادوارد سعيد بترجمة[2] د. كمال ابو ديب الى غير ما اريد له من اطلاع للقارىء العربي على هذا الكتاب المهم الذي يكاد يكون فريداً في نوعه في معالجة تأثير تراث او تقليد ثقافي معين هو « الاستشراق » على تكوين ما ينتجه عقل معين يمارس فاعليته ضمن هذه البنية الثقافية هو « المستشرق » ، وفي تقديم نموذج يحتذى في دراسة العلاقة **بين هذا التراث الثقافي برمته كبنية عميقة محدِّدة وبين ما ينتجه العقل الفردي من إنشاء ، او بعبارة اخرى من بنية فوقية** . إن الاستشراق كتقليد ثقافي هو ـ فيما يبدو بالنسبة لسعيد ـ **نظام يشبه في تاثيره وقوته النظام اللغوي** Langue ، **وما ينتجه المستشرق من انشاء يشبه الكلام** Parol **في خضوعه لهذا النظام** .

اقول اخشى ما يخشاه المرء هو ان تؤدي هذه الخدمة الجليلة (والشيقة في حد ذاتها كتجربة جريئة في ميدان الترجمة من الانكليزية الى العربية ينبغي ان تدرس من هذه الوجهة) التي قام بها د.

(*) أنا مدين بكتابة هذه الدراسة للدكتـور عدنـان درويش (مديـر التراث في وزارة الثقـافة والارشـاد القومي بدمشق) . فعلى الرغم من ان نواتها تعود الى جملة من ملاحظات سجلتها هنا وهناك خلال السنوات الثلاث الماضية (اي الى الفترة التي تلت ظهور كتاب **الاستشراق** في عام ١٩٧٨) ، الا ان الحافز على تدوينها في صورتها هذه إنما جاء إثر نقاش مطوّل معه عن وضع الدراسات العربية باللغة الانكليزية ، اثناء زيارتي الاخيرة لدمشق في صيف ١٩٨١ .

وكذلك فإن قراءة كل من الاساتذة ألبرت حوراني ، حميد عنايت ، دريك هبوود (من كلية سانت انتوني ـ جامعة اكسفورد) ونورمان سيفار (من جامعة ويسكنسن سابقاً) لها ، وملاحظاتهم المشجعة ، جعلتني اطمئن اكثر الى ما ورد فيها من آراء والتي تعبر اساساً عن وجهة نظر صاحب السطور الذي تقع عليه مسؤولية ما فيها .

(١) انظر :

Edward W. Said, *Orientalism* (London: Routledge and Kegan Paul, 1980).

(٢) انظر : ادوار سعيد ، **الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الانشاء** ، تعريب كمال ابو ديب (بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨١) .

ابو ديب ، الى مجرد تزويد بعض المعادين للاستشراق ـ وما اكثرهم ـ بذخيرة حديثة جداً ، على غاية ما تكون من التطور والفاعلية في هجومهم على هذا التقليد الثقافي ، بدل الافادة من تضمنات هذا الكتاب الذي سيكون له تأثير حاسم على الطريقة التي تدرس بها الظواهر الثقافية المعاصرة ؛ وخاصة ما اتصل بقضية التأثير المتبادل بين المعرفة من جانب والقوة (السلطة) من جانب آخر. **فالاستشراق هو نموذج متطور جداً في التحليل الايديولوجي القائم على افتراض فحواه : ان اي انشاء يخبرنا عن منتجه والبنية الثقافية التي يعمل من خلالها اكثر مما يخبرنا عن موضوعه الذي يفترض فيه ان يعالجه ويحلله ويصل الى نتائج معينة تتصل به .**

ولهذا فإنني سأحاول ، فيما يلي من سطور ، ان اقدم جملة من الملاحظات التي تتصل بعلاقتنا ـ نحن العرب الداخليين Insiders ـ بهذا التقليد الثقافي القوي ، وبما ينتجه المستشرقون او الخارجيون Outsiders ، لأصل الى ما يبدو لي انه الطريق الاجدى في التعامل مع هذا التقليد ، او ما اود ان اسميه بالمواجهة الايجابية .

تنبغي الاشارة بادىء ذي بدء الى انه مهما اختلفت آراؤنا في الاستشراق ، فإننا لا نستطيع ان ننكر حقيقة كونه تقليداً يتمتع بعراقة نسبية ، ويستطيع ان يمارس تأثيرات بعيدة المدى على كل من يتصل به بسبب ، من خلال كونه مؤسسة ثقافية وطيدة الاركان . او بمعنى آخر ، إن كون الاستشراق بنية ثقافية تتمتع بقسط معقول من التماسك يجعل من الصعب على من يتحرك من خلالها ان يهرب من ساحة تأثيراتها السلبية او الايجابية على حد سواء . فالنصوص التي تشكل هذا التقليد مثلها مثل اي نصوص توجد في سياقات معينة ، وثمة ما يشبه الاجماع الآن الى ان هذه النصوص هي حصيلة تراكمات جمعية ، او هي بعبارة اخرى حصيلة نظام من الاقتباس من اعمال ومؤلفين[٣] سابقين ومعاصرين ، وان لقضية اي تقليد ثقافي ضغطاً يمارس من خلاله المساهمون فيه على اختلافهم تأثيرات معتبرة تحاول ان تقمع الصوت الفردي لصاحب الانشاء الجديد . وبالطبع فإن ذلك لا يعني اهمال أثر الكتّاب الافراد في هذا الجسد الجمعي للنصوص التي تشكل التقليد ، رغم ان هذا الاثر يقتصر على فئة قليلة جداً .

إن اي متتبع للاستشراق يستطيع ان يتلمس ان هذا التقليد الثقافي الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، استطاع ـ ومن خلال جملة من التطورات التي مرّ بها ـ ان يتحول الى مؤسسة ثقافية بالغة القوة ، لا تستطيع فقط ان تمارس تأثيرها هذا الى موضوع بحثها : الشرقيين انفسهم . ورغم كل ما يمكن للمرء ان يجده في هذا التقليد من مثالب وعيوب ونواقص ، وما يستشفه في قراءاته له من اهواء ونزعات مغرضة ، ورغم كل ما يقال عنه من انه كان شريكاً للانظمة السياسية في الغرب المستعمر في السيطرة على الشرق ، والتحكم بمقدراته ومصائر اهله وشعوبه ، وفي سماحه بتوظيف ما لديه من معرفة لخدمة نزعة السيطرة ، وتسويغ استخدام القوة ضد الآخر الضعيف الذي لا يملكها ، فإنه لا يمكن له الا ان يعترف ـ وربما بأسف شديد حقاً ـ بأن دارس العرب خاصة والشرق عامة ـ سواء أكان من الشرق ام من الغرب ـ يظل يتحرك ضمن بنية ثقافية خلقها الخارجيون عن هذا الشرق . ومن منطلق التمحور حول الذات ، فقد نجح هؤلاء رغم كل شيء في خلق تقليد ثقافي متماسك ، اصبح له تاريخ يمتد على اكثر من قرنين من الزمان ، ويستطيع بالاضافة الى ذلك لا ان يشكل عقلية

---

(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

الدارسين الغربيين من المستشرقين فحسب ، بل عقلية الدارسين الداخليين من الشرقيين انفسهم في احايين كثيرة سواء أدرسوا في الغرب ام لا. واكثر من هذا ـ كما يقول ادوارد سعيد ـ فإننا :

« إذا اتخذنا من اواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً ... نستطيع ان نناقش الاستشراق ونحلله بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق ؛ التعامل معه بإصدار تقريرات حوله ، وإجازة الآراء فيه وإقرارها ، وبوصفه ، وتدريسه ، والاستقرار فيه ، وحكمه ، وبإيجاز : الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق ، وإعادة بنائه ، وامتلاك السيادة عليه »(٤) .

وبالطبع فإنه ليس ثمة حاجة الى القول ان هذه المؤسسة ما كان لها ان تقوم ، وإن هذا التقليد الثقافي ما كان له ان يغدو بهذه الفاعلية ما لم يقدم حصيلة ثقافية على قدر معقول من الموضوعية ، وعلى حد ادنى من مقتضيات البحث لم يكد يصلها الا عدد محدود جداً من دراسات الداخليين ممن يدعون الغيرة الشديدة على تراثهم وثقافتهم ، بل إن هذا التقليد غدا فرعاً على غاية من التنظيم ، استطاعت من خلاله الثقافة الغربية « ان تتدبر الشرق بل ان تنتجه سياسياً واجتماعياً ، وعسكرياً ، وعقائدياً ، وعلمياً ، وتخيلياً في مرحلة ما بعد عصر التنوير »(٥) .

والحقيقة التي تبعث على الاسى حقاً هو ان هذا التقليد لا يكاد ينجو من تأثيره الشرقيون انفسهم ، ودع عنك المستشرقين الذين يؤسسون في دوائره . وعلى الرغم من ان الاستشراق قد بدأ بعملية نقد داخلية منذ بداية العقد السابع ، وان ثمة اصواتاً جديدة متعاطفة مع موضوع الدراسة اخذت تتردد اصداؤها في رحابه ، فإن المستشرق الذي يبدأ بدراسة الشرق ومن خلال جملة المكونات الثقافية التي تحكم انتاجه في النهاية ـ كالقوالب الثقافية الجاهزة التي تراكمت من خلال اجهزة الاعلام والتي يعتبر عالم الف ليلة وليلة والحروب الصليبية وسواها من موادها الاساسية ، ومن خلال التغطية الاعلامية للشؤون الشرقية وخاصة ما اتصل منها بحياته اليومية ؛ وبعد ذلك من خلال الكتب التي يقرأها في دراسته الجامعية الاولى ، ومن خلال المراجع المختلفة التي كتبت بمختلف اللغات الاوروبية والتي أنتجها الاوروبيون ، الخارجيون ، الآخرون ؛ واخيراً من خلال التفاعل بين هذا الجانب الاكاديمي من هذا التقليد والجانب الاعلامي منه ـ يتقولب بفعل هذا التقليد الثقافي ورغم محاولته دائماً البحث عن صوته الخاص به ، ورغم محاولته ان يكسر هذه الدائرة المغناطيسية التي تحدد حركته وتقيده ، فإنه يظل اسير هذا النمط من النظام الفكري الذي يقوم عليه الاستشراق ، هذا التراث النقابي / المهني كما يسميه ادوارد سعيد ، إنه بمعنى آخر يغدو منتجاً ثقافياً له . والغريب ان الاستشراق ، رغم إخفاقاته التي تحدث عنها انور عبدالملك(٦) ، وعبداللطيف الطيباوي(٧) ،

---

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩

(٦) Anouar Abdel-Malek, *Social Dialectics*, vol. 1: *Civilization and Social Theory* (New York: State University of New York, 1981), «Orientalism in Crisis,» pp. 73-96.

(٧) انظر لعبد اللطيف طيباوي : Abdul Latif Tibawi, *English Speaking Orientalists: A Critique of Their Approach to Islam and Arab Nationalism* (London: Luzac for the Islamic Cultural Centre, 1964); «Second Critique of English- Speaking Orientalists and Their Approach to Islam and the Arabs,» *The Islamic Quarterly*, vol. 23, no. 1 (1979), and «On the Orientalists again,» *The Muslim World*, vol. 70, no. 1 (January 1980), pp. 50-61.

وادوارد سعيد وآخرون[٨] ، « ورغم مصطلحه المعاظل الذي يثير الشفقة ، وعرقيته التي لا تكاد تحجب ، وجهازه الفكري الرقيق رقة الورقة ، يزدهر اليوم »[٩] ازدهاراً لا يمكن للمرء ان يغضي طرفه عنه . ولكن من المثير للقلق حقا هو ان تأثيره قد انتشر الى الشرق نفسه،«فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية... تمتلىء بتحليلات من الدرجة الثانية لـ « العقل العربي » ، والاسلام ، واساطير اخرى ، يقوم بها كتّاب عرب »[١٠] . ورغم ان المرء لا يمكن ان يأخذ ـ وعلى النحو نفسه من التطرف ـ برأي ادوارد سعيد في تغلغل هذا التأثير عندما يقول :

« ان الوطن العربي اليوم كوكب تابع فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة ، وليس هذا في ذاته بشيء يدعو الى الرثاء ، غير ان الشكل المحدد بعلاقته التكوكبية نفسه يدعو الى ذلك » .

إلا انه من جهة اخرى لا يسعه الا ان يعترف بأن رأي سعيد فيما يتعلق بظروف انتاج الثقافة العربية المعاصرة صحيح في مجمله ويا للاسف ، يقول سعيد : « خذ بعين الاعتبار اولاً ان الجامعات العربية في الوطن العربي تدار بشكل عام تبعاً لنسق ما ، موروث عنه ، او مفروض مباشرة من ، قبل قوة مستعمرة سابقة ، وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسية قبيحة حتى الرعب تقريباً : صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة ، جهاز تدريس مدرب تدريباً سيئاً، ومرهق بالعمل ، ويتلقى رواتب سيئة ، تعيينات سياسية ، الغياب المطلق للأبحاث المتقدمة ولوسائل البحث العلمي ، واهم من ذلك ، الافتقار الى مكتبة واحدة لائقة في المنطقة بأسرها »[١١] .

والحقيقة ان هذا الوضع المزري لظروف الانتاج الثقافي ، وسائله ، وعلاقاته ، وعناصره في المؤسسات الثقافية العربية ـ وخاصة الجامعات منها والتي يفترض فيها ان تكون حصن القيم الثقافية في الوطن العربي ـ يقود بشكل او بآخر الى شيئين : اولهما طفيلية المثقف العربي ؛ وثانيهما موقفه المتكافىء الضدين من هذا التقليد الثقافي المعني بمنطقته وتاريخه وثقافته وادبه وحضارته . وحتى لا يكون هذان الحكمان دون اساس فإني سوف أتوقف عند كل منهما وأناقشه بشيء من الاجمال .

اولاً : الاستشراق وتطفل المثقف العربي

ربما كان من غير المبالغة القول أن الدارسين العرب المحدثين ـ ان لم نقل العرب جميعهم ـ كانوا وما زالوا (وربما سيتابعون ذلك إن لم يستطيعوا تغيير الظروف الموضوعية للانتاج الثقافي في مجتمعهم) عالة على الغرب ، ليس في مجال التقنية والعلوم النظرية والتطبيقية او في ميادين الفلسفة والعلوم الانسانية وحدها ، وإنما في ميادين الدراسات المتعلقة بتاريخهم وادبهم وثقافتهم وحضارتهم

---

(٨) انظر : عزيز العظمة ، « افصاح الاستشراق ،» **المستقبل العربي** ، السنة ٤ ، العدد ٣٢ (تشرين الاول / اكتوبر ١٩٨١) ، ص ٤٣ ـ ٦٢ ؛ امجد بن عبود، « الاستشراق والنخبة العربية ،» **المجلة التاريخية المغربية** (تونس) ، السنة ٩ ، العددان ٢٧ ـ ٢٨ (كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٢)، ص ١٩٩ ـ ٢١٥ ، و
Aziz Al-Azmeh, *Ibn Khaldun in Modern Scholarship: A Study in Orientalism* (London: Third World Centre for Research and Publising, 1981).

(٩) سعيد ، **الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الانشاء** ، ص ٣١٩ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٣١٩ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٣١٩ .

بشكل عام . فنحن نستورد هذه الدراسات المكتوبة بالانكليزية او الفرنسية او الالمانية او الروسية او الايطالية او الاسبانية او غيرها من اللغات مثلما نستورد كتب الطب والهندسة والفيزياء والرياضيات وغيرها ، وانا بالطبع اعنيها واعني حصيلتها معاً هنا ، وبالطريقة التي نستورد فيها الطائرة والسيارة والآلة الحاسبة والمدفع والدبابة والحاسب الآلي وغير ذلك . ان الوطن العربي يبقى ـ كما يقول سعيد ـ قوة من الدرجة الثانية او الثالثة على صعيد انتاج الثقافة والمعرفة والبحث المتعلق بأقرب الشؤون التي تتصل بهويته ، اي ثقافته وتراثه وأدبه وتاريخه . ومن ناحية اخرى ، فإنه ليس ثمة من باحث عربي او اسلامي ـ جدير بلقب باحث ـ يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في المجلات البحثية ، والمعاهد والجامعات في الولايات المتحدة واوروبا ، غير ان العكس ليس بصحيح ، فليس « ثمة من مؤسسة تعليمية عربية واحدة قادرة على مضاهاة اماكن مثل اوكسفورد وهارفرد ، وجامعة كاليفورنيا ، لوس انجلوس ، في دراسة الوطن العربي ، ودع عنك اي موضوع غير شرقي »[١٢] . لأن العرب فيما يتصل بهذا الاخير ـ وأنا هنا أتحدث عن العرب المحدثين ـ لم يسهموا الا بقسط لا يكاد يذكر في دراسة حضارات الآخرين وثقافاتهم ، بل ربما شعر البعض ان الحديث عن مساهمة كهذه للعرب في العصر الحديث شيء من العبث ، لأن المقصر بحق نفسه لا يمكن ان يلام إذا ما قصّر بحق الآخرين . ولكن رغم ذلك تبقى النقطة قابلة للاثارة . صحيح ان ثمة اسماء معينة قد ساهمت ـ من خلال كتابات جادة وقيمة عن الثقافات الاخرى ـ بقسط لا يمكن انكاره ، الا ان من الانصاف ان نشير الى جملة حقائق في هذا السياق :

١ ـ إن هذه الاسهامات محدودة جداً ، ولا يمكن مقارنتها في اي وجه باسهامات الخارجيين في دراسة ثقافة الشرق ، وربما كان من اهم ما يميزها فيما يتصل بموضوع هذه الدراسة ، كونها تخلو الى حد كبير من اية نزعة عنصرية او ايديولوجية تتصل بهذا الفرق الوجودي بين الشرق والغرب (والذي يكمن وراء أغلب الآراء الاستشراقية المغرضة) . ويستطيع المرء ان يشير في هذا الموضع الى اسماء كمحمد مصطفى بدوي[١٣] ، وإيهاب حسن[١٤] ، وادوارد سعيد[١٥] ، وعادل سلامة[١٦] وسمر عطار

---

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٠ .

(١٣) انظر لمحمد مصطفى بدوي :

M[uhammad] M [ustafa] Badawi, *Coleridge: Critic of Shakespeare* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973), and *Background to Shakespeare* (London: Macmillan, 1981),

وغيرها بالفرنسية ايضاً .

(١٤) انظر لايهاب حسن :

Ihab Hassan, *Radical Innocence: Studies in the Contemporary American Novel* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1961); *The Dismemberment of Orpheus: Towards a Postmodern Literature* (New York: Oxford University Press, 1971), and *Paracriticism: Seven Speculations of the Times* (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1975).

(١٥) انظر لادوار سعيد :

Edward W. Said, *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1966); *Beginning, Intention and Method* (Homewood, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1978); *Literature and Society* (Homewood, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1980), and *The World, the Text and the Critic* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983),

اضافة الى عدد كبير من المقالات .

(١٦) للدكتور عادل سلامة كتاب حول « قصائد شيلي الطويلة » نشر في سلسلة دراسات سالزبورغ في الأدب الانكليزي ، لم يكن قريب المتناول عند كتابة هذه المقالة .

وآخرين[١٧] . وهذا يقودنا الى الحقيقة الثانية وهي :

٢ ـ انها نتاج غربي صرف ، لأنها حصيلة ممارسة وتدريب ونشاط تم في الغرب ، ولأنها كتبت بلغة اجنبية . والحقيقة انه اذا ما تم تغيير اسماء مؤلفي هذه الكتب ووضع اسماء اجنبية مكانها، فإن المرء لا يمكن أن يدرك انها كتبت من قبل باحثين عرب ، لأنها حصيلة ثقافية اجنبية .

٣ ـ اما فيما يتعلق بتلك المؤلفات التي كتبت باللغة العربية فهي متفاوتة في حديثها وقيمتها وتوثيقها ، الا انها يمكن ان تندرج تحت الفئات التالية :

ـ مؤلفات تمت عن طريق معرفة واسعة ومتعمقة وواثقة واحتكاك مباشرين بالثقافات الاخرى ، وهذه قليلة ومحدودة جداً وانتشارها يقتصر على فئة محدودة من الطلبة والدارسين .

ـ مؤلفات تمت عن طريق معرفة واحتكاك غير مباشرين ، ويغلب عليها السطحية والتردد احياناً وشيء غير يسير من الانتحال احياناً اخرى .

ـ مؤلفات تعتمد على التعريب وهي في مجملها تتخبط في مسخها ونسخها عما تنقل عنه ، اضافة الى مساهمتها الغريبة حقاً في نشر الكثير من سوء الفهم فيما يتعلق بهذه الثقافات .

ومن الغريب اننا بعد هذا التقصير في حق ثقافة الآخرين (والذي ربما اغتفره البعض) وفي حق ثقافتنا (والذي لا اظن ان احداً يمكن أن يغفره لنا) لا نرضى وفي كثير من الاحايين عما تنتجه المؤسسات الثقافية الخارجية من آراء ونظريات وننعتها باستمرار بأنها متعسفة مغرضة وغير موضوعية ومتحيزة وعنصرية ، وغير مستقصية او غير شاملة او سواها من الصفات ، دون ان نستطيع ان نقدم البديل عنها . وإذا ما كان عجزنا عن انتاج سيارة او طائرة او دبابة او حاسب آلي مسوغاً بسبب طبيعة الظروف التي مرت بها الامة العربية خلال القرون الماضية ، فإنه من غير المسوغ على الاطلاق ان نظل عاجزين عن تقديم دراسات جادة وموثقة ورصينة عن ادبنا وثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا يمكن أن تنهض للمقارنة مع ما ينتجه الآخرون من اشياء تتعلق بنا ، ونحن اولى بها منهم ، والأغرب من هذا اننا نتأثر بشكل او بآخر بحصيلة ما تقدمه هذه المؤسسة الثقافية الخارجية .

فنحن نباشر دراستنا من خلال مناهج وطرائق ومداخل ابتكرها الغربيون في دراستهم لثقافتنا وحضارتنا وادبنا وتاريخنا ، وليس ثمة من حاجة للاشارة الى ان هذه المناهج والطرائق والمداخل متخلفة بالقياس الى نظائرها المستخدمة في المعارف الاخرى . والسبب في ذلك عائد لوظيفة الاستشراق في المجتمع الغربي وللاعباء الكثيرة التي حُمِّلها المستشرقون ؛ تلك الاعباء التي كان من الصعب عليهم ان ينهضوا بها وهم على ما هم عليه من التأهيل الذي يقتصر في كثير من الاحيان على اللغة وفقهها فقط . يقول البرت حوراني:

« ولما كان المستشرقون من الجيل القديم الباحثين الوحيدين المهتمين بحق بالعالم الاسلامي ، والذين يملكون مفتاحاً اساسياً لكشف اسراره ـ وهو معرفة لغاته ـ فإنهم كانوا يدعون للقيام بأشياء عديدة دون ان يكونوا مستعدين تمام

---

(١٧) Samar Attar et al., *The Intruder in Modern Drama* (Frankfurt: Peter lang, 1981), and Mohammad Shaheen, *George Meredith: A Reappraisal of the Novels* (London: Macmillan, 1981).

الاستعداد للقيام بها جميعاً : ان يعلموا اللغات ، ويتذوقوا الادب، ويدرسوا التاريخ ، ويشرحوا النظم الدينية والقضائية ، بل ان يشيروا على الحكومات ويوعوا الراي العام حول القضايا السياسية ، لقد كتب معظمهم وعمل في حقل واسع سعة عجيبة واظهر سعة معرفة وفهماً لا يستطيع ان يطمح الى بلوغهما الا القليل من الباحثين المحدثين ، ولكنهم قاموا بكل هذا بثمن »[١٨] .

وما ذلك الا لأن عدتهم الوحيدة كانت معرفة اللغة فقط (وشيء عن الاسلام وتاريخه) ، وهل هذه تكفي لسبر اغوار ثقافة كثقافة الشرق او في ارتياد آفاقها الرحبة الواسعة . وهكذا فإن معظمهم كان على اطلاع كاف عندما يتعلق الامر بفقه اللغة او الدراسات الدينية، ودون ذلك اطلاعاً عندما يتعلق الامر بالادب الصرف ؛ بل إنهم ـ في رأي سعيد ـ لم يدرسوا الادب لأنهم لم يكونوا ليتقنوا اللغة[١٩] ؛ وربما اقل من ذلك في التاريخ والعلوم الاجتماعية . ونأتي بعد ذلك لنتخذ مما يقولون حجة نوثق بها كتاباتنا ، ولنقلدهم فيما ننتجه عن هذا الادب وذاك التاريخ وتلك الثقافة رغم اعترافهم هم بقصوره منهجياً عن مصارعة ما ينتجه معاصروهم في ضروب المعارف الانسانية الاخرى .

وهكذا فإن اكثر ما تنتجه مؤسسات الثقافة العربية هو نسخة ممسوخة ومنسوخة وربما من الدرجة الثانية او الثالثة مما ينتجه الآخرون ، وما ذلك الا لأننا لم نستطع خلق تقليد ثقافي متين ومتماسك في دراستنا لثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا ، تقليد يكون في جانب منه تطويراً للتقاليد العربية الكلاسيكية من جهة ، واستجابة لما جدّ من مناهج ومداخل ونظم معرفية من جهة اخرى . تقليد يضارع هذا التقليد الثقافي المتماسك والقوي والفعّال الذي نسميه الاستشراق .

ثانياً : موقف متكافىء الضدين تجاه الاستشراق

لا اظن ان ثمة من يماري في ان المثقف العربي كعامل من عوامل الانتاج او الاستهلاك الثقافي في الوطن العربي يقف موقفاً متكافىء الضدين في تعامله مع هذا التقليد الثقافي المدعو بالاستشراق . فهو من جهة يعرف ـ او ربما لا يعرف ـ ان هذا التقليد يشكل بنية ثقافية شديدة الوطأة في تأثيرها عليه ، ومن الصعب عليه تجاهلها او الخروج منها دون إرادة قوية وهيهات ان يتم ذلك دون خلق بنية ثقافية مكافئة في القوة والمستوى تكون بديلاً عنها . وهو يشعر اضافة الى ذلك انها بعيدة عن ان تقارب واقعه الذي يعيشه وتظل تختلط فيها بقايا سياسية وايديولوجية مغرضة ، الا أنه من جهة اخرى يعرف انه لا يملك انتاج البديل الذي يتيح له ان يستغني عنها بسبب طبيعة ظروفه المحيطة والتي سبق ان أشرت اليها . لذلك نجد ان كثيراً من المثقفين العرب يتخبطون في طريقة تعاملهم مع هذا التقليد ، فهم يرفضونه لما فيه رغم انهم في انتاجهم الثقافي يتأثرون بشكل او بآخر بهذا التقليد سواء أكانوا على وعي بهذا ام لم يكونوا . ويكفي ان يشير المرء الى بعض مظاهر هذا التأثر :

١ ـ هنالك اولاً اولئك الذين يدرسون في الغرب ، وهؤلاء يخضعون لما يخضع له اي دارس يتحرك ضمن البنية الثقافية الغربية ، ويتأثرون بنحو او بآخر بالبنى الثقافية الغربية . وبالطبع فإن هؤلاء

---

(١٨) Albert Hourani, *Europe and the Middle East,* St. Anthony's / Macmillan series (London: Macmillan, 1980), p. 180.

(١٩) Edward W. Said, «Interview: Edward Said,» *Diacritics* (Fall 1967), p. 47.

(اذا ما شاء المرء ان يؤكد على النواحي الايجابية في مشروعهم) يبقون في موقع متميز ـ على اي حال ـ لأنهم يبقون على اطلاع مباشر ليس على هذا التقليد فقط بل على ظروف خلقه ومعطيات إنتاجه ، وعلى النقد الداخلي الذي يمارس في داخله ايضاً . وهذه المعرفة المباشرة يمكن لها ان توظف توظيفاً ايجابياً سأشير اليه بتفصيل اكبر فيما بعد . وربما كان من الضروري هنا ان نشير الى خط تبني آراء كآراء ادوارد سعيد في هذه الفئة (عندما يدعى اصحابها « بالمخبرين الاصليين»)[٢٠] ، لأنها تعنى بشكل او بآخر سلب هؤلاء من حسن انتمائهم دونما سبب موضوعي مسوغ من ناحية ، ولأنها من ناحية اخرى تعني التخلي عن عامل مهم في تحويل مجرى الاستشراق ، هو بالقوة في مصلحة المواجهة الايجابية لتقليد الاستشراق ، ويمكن اذا ما أحسن استخدامه ان يساهم مساهمة لها شأنها في خلق مستويات جديدة داخل هذا التقليد ، تخلخل القيم السائدة فيه وتستطيع في النهاية ان تدخل قيماً وآراء ورؤى داخلية نافذة يصعب معها للمستشرق ان يتمسك بهذا التقليد ، لأنه لن يستطيع مقاومة رياح التغيير الداخلية .

٢ ـ هنالك ثانياً هؤلاء الذين اتيح لهم ان يطلعوا على نحو غير مباشر على هذا التقليد وتعرضوا لتأثيره . وهؤلاء ـ سواء في تحقيقهم لكتب التراث القديم واعدادها للنشر او في دراستهم لضروب الثقافة العربية الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة ، او في كتابتهم عن التاريخ العربي ، او المجتمع العربي ، او السياسة ، او الفلسفة وما الى ذلك ـ يحاكون المستشرقين ربما في كل خطوة يخطونها . فلست أظن ان طرق تحقيقنا لتراثنا هي تطوير للطرق التي استخدمها العرب القدماء في تدوينه وتوثيقه وحفظه ونقله ؛ ولست اظن ان دراستنا للأدب العربي في عصوره المختلفة او في دراستنا لبيئاته او مذاهبه تفيد الفائدة التي يفترضها المرء من طرق دراستنا الكلاسية لهذا الادب بعد تطويرها التطوير المناسب ؛ ولست اظن ان مناهج البحث التاريخي والاجتماعي والسياسي وغيرها مأخوذة عن اسلافنا القدماء مثلما هي مأخوذة ـ والى حد كبير ـ عن الغرب . وبمعنى آخر إننا في دراساتنا الانسانية المعاصرة نتابع التقليد الغربي تقريباً ، وأننا الى حد بعيد ننظر الى تراثنا وثقافتنا وأدبنا بعيون غربية ، مصدرها تكويننا الثقافي الذي تنعدم فيه المشاركة العربية الفعّالة التي تستند الى تقليد يكون استمراراً لما ساهم فيه اسلافنا العرب .

٣ ـ وهنالك اخيراً هذه الفئة الثالثة التي ترفض الاستشراق رفضاً كاملاً ، ولا تدع اي فرصة تفوتها دون ان تحاول النيل من هذا التقليد او تفنيد ما ينتجه من آراء . وهي ترى فيه على وجه الاجمال تقليداً مغرضاً ما فتىء منذ بداياته الاولى المرتبطة بالعهود الاستعمارية يحاول الانتقاص من ثقافة الشرق وادبه وحضارته ، ويسعى جهده لتشويه تاريخه وإعطائه شتى التفسيرات البعيدة عن مدارك الشرقيين وآفاق تخيلاتهم .

والمفارقة في موقف هذه الفئة تبتدىء في أنها في محاولتها نقد الاستشراق وتفكيك بناه تلجأ الى الاطر الثقافية نفسها ، وتنتهي الى تبني منطقه واعتقاداته وافتراضاته ومسلماته وأنظاره . واذا ما شاء المرء ان يدلل على هذا فحسبه ان يشير مثلاً الى ان الكثير من الباحثين العرب شُغل الى وقت طويل بتفنيد جوانب من التراث : الاستشراق المتصل بفلسطين وهو بالتحديد الجانب المعني بتسويغ الحق التاريخي للصهاينة في الاستيطان في هذه الارض العربية ، وهم في محاولتهم هذه تبنوا المنطق نفسه ،

---

(٢٠) سعيد ، **الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الانشاء** ، ص ٣٢٠ .

والاطر النظرية نفسها التي استخدمها المنظرون الصهاينة في تسويغ ما يرتكبونه من اضطهاد وظلم ضد العرب من سكان فلسطين المحتلة . وكذلك فإن الكثيرين من افراد هذه الفئة وجدوا انفسهم في معرض الرد على الاتهامات التي يلصقها بعض المستشرقين بالعرق السامي والتي تنبع من الاعتقاد بتفوق العرق الآري يلجأون الى المنطق نفسه ، ويحاولون ان يثبتوا ان العكس هو الصحيح وان العرق السامي عرق متفوق ، وان الشرق الذي يسكنه هؤلاء الساميون هو مهد الديانات السماوية وموطن الامن والسكينة الروحيين ومنبع الحضارات الكبرى في تاريخ الانسانية وما الى ذلك من بيانات تعتمد اساساً على الاطار النظري نفسه الذي يستخدمه المستشرقون . وهكذا فإنهم يقعون في الشرك نفسه الذي ارادوا ان يخرجوا الآخرين منه ، لأنهم ينطلقون من المسلمات نفسها التي ينطلق منها الآخرون ، وبالتالي فإنهم ـ وعلى نحو سلبي ـ يثبتون صحة هذه المسلمات عن غير وعي منهم . وهناك امر آخر ، وهو انه نتيجة الموقف الرافض الذي تتخذه هذه الفئات من الاستشراق جملة وتفصيلاً تغضي طرفها عن كثير من الانجازات الايجابية فيه وهي لذلك تحرم نفسها دونما سبب من الافادة مما يمكن ـ لو مُحِّص ـ ان يكشف عن سمين فيه . فالاستشراق ـ كما لا يستطيع ان ينكر ذلك اي باحث منصف ـ فيه الغث والسمين ورغم انه يوجد فيه الكثير من الاساطير والاوهام ، الا انه يستند الى شيء ما ، استطاع ان يحفظ عليه وجوده حتى يومنا هذا . ويكفي ان يشير المرء هنا الى التسهيلات المتاحة للباحث الغربي والتي تتراوح بين المكتبة المستوعبة للكتب والدوريات والنشرات والوثائق والاوراق الخاصة والمخطوطات وبين الحاسب الآلي مروراً بخدمات رجال سلك الامن واجهزته المختلفة ومعلوماتهم ـ المصنفة ـ والتي تقدم له على اساس المنفعة المتبادلة ، اضافة الى الاموال الطائلة التي ترصدها المؤسسات الثقافية ومعاهد البحث والدراسة والخدمات ، او التي توقفها عليه المؤسسات الاقتصادية والتجارية المهتمة بالمنطقة ، ودع عنك بعد ذلك الظروف المعيشية للباحثين انفسهم والتي لا تكاد تفكر فيها المؤسسات الثقافية او التعليمية او التربوية العربية . **إن الثقافة انتاج في مجملها ، وليست ابداعاً مطلقاً ، وما لم يتم توفير وسائل هذا الانتاج وتنظيم علاقاته ، وتعبئة موارده من اجل دفع الحصيلة النهائية كماً وكيفاً ، فإنه لا سبيل الى تعليق آمال كبيرة على مستقبلها . ولذلك فإن القائمين على اسباب انتاج الثقافة العربية ينبغي ان يتنبهوا الى ضرورة القيام بشيء ما ، من اجل تغيير ظروف هذا الانتاج ، حتى يكفلوا انتاجاً ثقافياً يمكن أن يعتبر إسهاماً عربياً من ناحية ، وان ينتمي الى العصر الذي نعيش فيه من ناحية اخرى .**

أعود فأقول ان حصيلة هذه التسهيلات الخارجية (التي تُمنح للمستشرق)والمتمثلة بما يكتبه المستشرقون لا بد من ان تكون على حدّ ادنى من الجدية والرصانة ، بل من الاطراد والاتساق الداخليين[٢١] . ولربما كان من المفيد هنا ان نشير الى رأي اكثر نقاد الاستشراق فاعلية واهمية في تماسك هذا التقليد ، وما يتمتع به من قوة داخلية ، يقول ادوارد سعيد :

« ينبغي على المرء الا يفترض ابداً ان بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الاكاذيب او الاساطير التي ستذهب ادراج الرياح ، اذا كان للحقيقة المتعلقة بها ان تجلى . وانا نفسي اؤمن بأن الاستشراق اكثر قيمة بشكل خاص كعلامة على القوة الاوروبية ـ الاطلسية بإزاء الشرق منه كإنشاء حقيقي عن الشرق (وهو ما يدّعي الاستشراق ، في شكله الجامعي او البحثي ، كونه) . على اي حال ، إن ما علينا ان نحترمه ونحاول ان ندركه هو القوة المتلاحمة للإنشاء الاستشراقي ،

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية المعززة ، وقدرته المهيبة على البقاء . فأي نظام من الافكار قادر ، بعد كل حساب ، على ان يبقى دون تغيير كحكمة قابلة للتدريس (في المجامع ، والكتب ، والمؤتمرات والجامعات ، ومعاهد السلك الخارجي) من زمن ارنست رينان في اواخر عام ١٨٤٠ الى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة ، لا بد ان يكون شيئاً اكثر صلابة ومتانة من مجرد مجموعة من الاكاذيب »[٢٢] .

ويكتب في موضع آخر : « إن لتاريخ الاستشراق ـ في آن واحد ـ اتساقاً داخلياً ، وجملة من العلاقات ، على درجة عالية من الفصاحة والوضوح ، مع الثقافة المسيطرة المحيطة به »[٢٣] .

وبالطبع فإن الحديث عن تماسك الاستشراق وقوته الداخلية واتساقه لا يعني بحال من الاحوال إنكار وجود أبعاد ايديولوجية وسياسية واقتصادية وثقافية لهذه الحصيلة . فالمعرفة المتعلقة بالمجتمع الانساني معرفة تاريخية ومحكومة بالضرورة بظروف انتاجها ، وهي لذلك قائمة على المحاكمة والتفسير . ولا يعني هذا ان الحقائق والمعطيات غير موجودة ، ولكنه يعني ان الحقائق تستحوذ على اهميتها مما يصنع بها في التفسير[٢٤] . الا انه من الاهمية بمكان ان يكون العرب المعاصرون على وعي بوجود هذه الحصيلة الثقافية ويفيدوا منها . وليس ثمة من حاجة الى ان يؤكد المرء من جديد على ان هذا الموقف السلبي الرافض الذي تتخذه هذه الفئة الثالثة من هذا التقليد يحرمها ـ دونما مسوغ معقول ـ من فرصة الاحتكاك به ، وبالتالي الافادة منه : هذه الافادة الموجودة **بالقوة** فيه بالتأكيد .

ثالثاً : ثلاثة خيارات

كيف يمكن لنا نحن العرب ، في ضوء ما تقدم عن واقع العلاقة بين الاستشراق والعرب ؛ هذه العلاقة المحكومة **بالثنائية وتكافؤ الضدين** ، ان نتعامل **كداخليين** Insiders مع هذا التقليد الثقافي العريق ؟ وما هي **الخيارات** المتاحة امامنا ؟

يبدو لي ـ وبغرض تبسيط الامور ـ اننا امام خيارات ثلاثة :

١ ـ ان نرفض هذا التقليد جملة وتفصيلاً ونوفر على انفسنا عناء مناقشته .

٢ ـ ان نقبله دون تحفظ وان نغض طرفنا عما فيه من تضمنات ايديولوجية او سياسية او اقتصادية او ثقافية .

٣ ـ ان نتعامل معه تعاملاً نقدياً ، وان نأخذ ونرفض على هدي البصيرة النقدية ، والتفحص المتمعن او قل ان نواجهه مواجهة ايجابية.

١ ـ الرفض المطلق

يبدو لي ان هذا الخيار هو اسهل الخيارات فهو يريحنا من الكثير من العناء . وهكذا نجد انفسنا اننا لسنا بحاجة الى تتبع ما يصدر عنه من حصيلة ثقافية ، وعلى اي حال فالاستشراق ـ كما يقول د .

---

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٢٤) Edward W. Said, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World* (New York: Pantheon Books, 1981), p. 154.

حسام الخطيب ـ « هو علم اوروبي ، اي انه كتب باللغات الاوروبية من اجل الاوروبيين ، انه صورة ما توصلت اليه اوروبا في معرفة الشرق . وهو يعكس موقفاً اوروبياً وعقلية اوروبية »[٢٥] . ولذلك ، فإنه ـ وإن كان موضوعه ـ لا يعنينا في شيء ، ولا يضيرنا إن تجاهلناه . وقد يقول قائل : لم نضيّع الوقت والمال والجهد والطاقة في سبيل ما لا جدوى منه ولا عائد ؟ وماذا يفيدنا ان نتتبع اخبار الاستشراق ، او ان نترجم كتبه ، ونناقش ما فيها ، وننقدها ، ونفند ما نراه غير صحيح مما تضمه من آراء ، ونغضب فيما لا طائل منه ؟ هل كان الاستشراق غير نتاج خارجي ، كتبه خارجيون لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي نتكلم بها ، فكيف بهم عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخنا وثقافتنا وأدبنا واقتصادنا وسياستنا . إنهم بالتأكيد لن يصلوا الى حقيقة ذات قيمة تتصل بها . وبالتالي فلا ضير علينا إن اغضينا طرفنا عما يعملون .

وإضافة الى ما قدمت من عقابيل تبني خيار كسول كهذا عندما تحدثت عن موقف الفئة الثالثة من المثقفين العرب من الاستشراق ، أجدني مضطراً الى الاشارة الى ان نظرة الآخرين لنا وتعاملهم معنا ، ونظرهم في امورنا ومناصرتهم ـ او معاداتهم ـ لقضايانا المصيرية وما الى ذلك من امور تتصل وعلى نحو وثيق بهذا التقليد وتتأثر به سواء أسرّنا ذلك ام أغضبنا ، قبلناه ام رفضناه .

وحتى اقنع اصحاب هذا الخيار الكسول، فإنني اشير الى ظاهرة تلمستها بنفسي وبوضوح خلال اقامتي في الغرب وتعاملي مع الدراسات العربية المكتوبة بالانكليزية ، ظاهرة تحدثت عنها في غير هذا الموضع، وأجدني بحاجة الى الاشارة اليها مجدداً في هذا السياق . فقد لاحظت ان ثمة اهتماماً متزايداً بالادب العربي الحديث ضمن اوساط المثقفين الاجانب عامة ، وضمن دوائر الدراسات العربية على نحو خاص ، ولاحظت كذلك ان كثيراً من باحثي الادب المقارن بدأ يلتفت الى هذا الادب ويدرس علاقاته بالآداب الاخرى، ويقارن الوان التجارب الانسانية التي يقدمها ادبنا مع غيره من الآداب الاخرى . وبالطبع فإن كثيراً من هؤلاء لا يحسنون اللغة العربية ، وهم (وإن أحسنها بعضهم) اميل الى التسهيل على انفسهم ومن ثم تراهم يلجأون الى ترجمات هذا الادب او النظر في دراساته باللغات التي يحسنونها . وليس ثمة من شك في ان الانكليزية تكاد تكون لغة الاستشراق الرئيسية ، وهذا لا يعني بأي حال النظر باستخفاف الى ما يصدر باللغات الاخرى كالفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية والروسية ، ولكنه مجرد اشارة الى ان ما ينشر بالانكليزية يكاد يفوق ما ينشر بأي لغة اخرى ، اضافة الى كون الانكليزية من اوسع اللغات انتشاراً في عالمنا اليوم ، (اذا ما استثنينا اللغة الصينية بالطبع) .

ويبدو ان المؤسسات الثقافية الصهيونية في الكيان العنصري وخارجه شعرت بهذا منذ زمن (ومن المؤسف انهم اخبر منا عندما يتعلق الامر بهذه النواحي ، فهم يحاربوننا في كل المجالات ، وليس على جبهة القتال وحدها ، ويفيدون من كل الوسائل المتاحة لديهم مهما كانت ، ومهما كان مصدرها وشكلها) ورأت فيه ثغرة يمكن ان تنفذ منها . وهكذا شرع الكثيرون من الباحثين الصهاينة بالاهتمام بهذا الادب ودراسته ونشر دراسات جادة عنه تنشرها اكبر دور النشر الاستشراقية بمساعدة تقدمها جامعات الصهيونية[٢٦] . وانا لا يهمني ان اناقش مضمون هذه الدراسات ، ولا ان احلل دوافعها هنا

---

(٢٥) حسام الخطيب ، « الاستشراق في ثوب جديد ،» **البعث** (دمشق) ، ١٠ / ٣ / ١٩٨١ .

(٢٦) Sasson Somekh, *The Changing Rhythm: A Study of Najib Mahfuz's Novels*, Studies in Arabic =

(علماً ان اغلبها رسائل جامعية أجيزت من افضل الجامعات الاوروبية والامريكية) ، ولكني أود ان أشير الى ان هؤلاء الباحثين الصهاينة ـ سواء اعترفوا بذلك ام لم يعترفوا ، قصدوه ام لم يقصدوه ، اندفعوا اليه بحب هذا الادب والاهتمام به كأدب جدير بالبحث والدراسة ام بغاية اخرى اكاديمية او غير اكاديمية ـ يريدون للمستعربين والمهتمين بدراسة الادب العربي الحديث ان ينظروا الى هذا الادب من خلال العيون الصهيونية ، وان يقبلوا بشكل غير مباشر آراء الصهاينة فيه وتقويمهم له وتحليلاتهم . وبالطبع فإن ثمة تضمنات اخرى لهذه العناية يمكن ان يفيد منها السياسيون الصهاينة ورجال آلة الحرب في كيانهم ، اهمها القول للعالم أجمع بلغة البحث الاكاديمي « الموضوعي » ، نحن اكثر اهتماماً بالعرب وثقافتهم وأدبهم وتاريخهم منهم بأنفسهم ، ونحن نقوم بهذه المهمة خير قيام ، ونتحمل عبء الرجل الاوروبي في تمدين المنطقة وتحضيرها ، والحفاظ على تراثها الثقافي والتعريف به ونشره بين قراء الغرب ، ولا نلقى مقابل ذلك من هؤلاء العرب غير الحقد والتهديد والتلويح بالحرب والدمار والالقاء بالبحر[٢٧] . ولا شك ان رأياً عاماً غربياً محملاً بالاحساس بالذنب تجاه من اضطهد من اليهود في ايام النازية والفاشية ، ومفعماً بإحساس الحسد والغيرة من العرب للثروة التي يتمتعون بها والتي ألقيت بين عشية وضحاها بين ايديهم وهم الشعب المتأخر البربري والمتوحش والبدوي و« الارهابي » ، ما يفتأ يهدد بها الغرب المتمدن المتحضر ، اقول ان شعباً كهذا يتقبل هذا ويفهمه لأنه اللغة التي يعرفها ويخاطب بها .

هل نقول بعد هذا ان الامر لا يعنينا ، وانه لا يؤثر علينا ، واننا نستطيع ان نتجاهله ؟ او ان نتركه كما في هذه الحالة الى الباحثين الصهاينة ليغدو حجة في ثقافتنا وأدبنا وحضارتنا على حساب كسلنا الفكري وتقصيرنا بحق انفسنا ؟

وهناك امر آخر اشار اليه باحث عربي معروف بنظرته المتزنة الى تقليد الاستشراق ، تلك النظرة التي تستند الى خبرة مباشرة به امتدت على فترة طويلة من الزمن معه . يقول الدكتور حسام الخطيب : « إن العالم المتقدم غرباً وشرقاً لم يعد يعتمد على البحوث العامة الشاملة الآخذة من كل شيء بطرف . بل اتجه ـ كما هو معلوم ـ الى التخصص الدقيق جداً . وهكذا الغيت تقريباً كلمة مستشرق ، وحلت محلها كلمة مستعرب او Arabist ، اي مختص بالدراسات العربية . واصبحت هذه الدراسات تجري في مراكز بحث علمية ، متعددة التخصصات المتعلقة بالبلاد العربية ، وهذه المراكز تضم مكتبات غنية جداً ، وتضم ايضاً فرقاً مدربة على البحث والاحصاء والتأليف المشترك . ويجد فيها الانسان اليوم معلومات وتحصيلات غزيرة حول نواحي الحياة العربية من اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وفنية . وهذه المراكز ذات خطورة واضحة ليس لأنها تقدم « معلومات خاطئة » او لـ « تشويهها » لما هي عليه الامور في البلاد العربية ، بل لأنها تقدم صورة علمية دقيقة تزود المختصين السياسيين وغيرهم بما يريدون ان يعرفوه عن اية

---

literature, 2 (Leiden: Brill, 1973); David Semeh, *Four Egyptian Literary Critics* (Leiden: Brill,1974), and = S [hmuel] Moreh, *Modern Arabic Poetry, 1800-1970: The Development of Its Forms and Themes under the Influences of Western Literature,* Studies in Arabic literature, 5 (Leiden: Brill, 1976),

وقد نشرت هذه الدراسات بمساعدة جامعة تل ابيب ، جامعة حيفا والجامعة العبرية .

(٢٧) عبد النبي اصطيف ، « تحت عيون صهيونية ،» **الدستور** (لندن) ، (١٠ ـ ١٦ آذار / مارس ١٩٨٠) ، ص ٦٢

منطقة عربية او ناحية من نواحي الحياة العربية التي تكون موضع اهتمامهم ، وبذلك ليس بعيداً عن الصحة ما يقال عادة من ان (الآخرين) يعرفون عنا اكثر مما نعرفه عن انفسنا »[٢٨] .

وهكذا فإن ثمة سمياً يمكن أن نجده في اهتمامنا بهذا التقليد وفي تتبع احدث ما يقدمه ، وخاصة فيما أشرت اليه في غير هذا الموضع على انه من ملامح الاستعراب الجديد[٢٩] ، واهمه اسهامات المستعربين العرب ، اولئك الذين قدر لهم ان يعيشوا في الغرب وينشروا بلغاته ويدرسوا في جامعاته .

٢ ـ القبول غير المشروط

اما الغباء الثاني فهو قبول كل ما يأتينا به الاستشراق على عواهنه ، وإغضاء الطرف عما فيه من تضمنات ايديولوجية وسياسية ، واعتماد بياناته أساساً لفهم انفسنا ، ولم لا ، وهو حصيلة ثقافة غربية رفيعة تصدر عن حضارة غربية نحاول جهدنا الوصول الى ما وصلت اليه ونسعى الى محاكاتها بكل ما أوتينا من قوة .

وفوق ذلك فإنه لا يسعنا ان نستخدم الطائرة التي ينتجها الغرب ، ونفيد من تسهيلات الاقمار الصناعية في اتصالاتنا والحاسبات الآلية في مختلف مرافق حياتنا ، ثم نرفض بعد ذلك ما يقوله عنا . وهو على اي حال اكثر معرفة منا بأنفسنا ، إنه يملك التسهيلات والمنهج فلماذا لا يملك حصيلتهما ، او قل انه يملك القوة والسلطة التي يمارسهما بشكل او بآخر في هذا الوجه او ذاك من الحياة العربية المعاصرة ، فلماذا لا يملك المعرفة؟ وهو يملكها حقاً .

واكثر من هذا فإننا بذلك نوفر على انفسنا المال والوقت . إن انتاج كتاب عربي بحاجة الى عدة سنوات من التفرغ نتيحها للباحث العربي ، والى تسهيلات كثيرة ، واموال طائلة ننفقها عليه ، وترجمة كتاب لا تقتضي اياً من هذا . صحيح اننا قد نقع على آراء لا تسرنا ، ولكن هذا متوقع فنحن امة متخلفة ، ومن الصعب ان نجد في اوضاعنا الراهنة كبير راحة واطمئنان ورضى لأنفسنا بله نفوس الخارجيين من المستشرقين .

فلنتخل اذاً عن المشاعر القومية الشوفينية ، وعن العاطفية والذاتية ، فما ينتجه الغرب انتاج على قدر كبير من الموضوعية . والحكمة ضالة المؤمن ، وإضافة الى ذلك أليس تراثنا نفسه ينصحنا بأن نطلب العلم ولو في الصين؟ والحقيقة في نهاية الامر لا ترضي . ومن يحب الحقيقة على اي حال .

ورغم كل ما يمكن ان يلفع كهذا من مظاهر الواقعية والعملية والانفتاح وسعة الافق ، فإنه موقف على غاية ما يكون من الجرأة في اللامبالاة بعقابيله . واكثر من هذا فإنه يبدو اكثر غرابة عندما نتذكر ان

---

(٢٨) الخطيب ، « الاستشراق في ثوب جديد » .

(٢٩) انظر على سبيل المثال لعبد النبي اصطيف : « المؤتمر السنوي السادس للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الاوسط : وقائع وهوامش » **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** ، السنة ٥٥ ، العدد ٤ (تشرين الاول / اكتوبر ١٩٨٠ ، ذو القعدة ١٤٠٠ هـ) ؛ « ببليوغرافيا اسلامية عربية : دليل مجلس مكتبة الشرق الاوسط وقصة ستة عقود » **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** ، السنة ٥٥ ، العدد ١ (كانون الثاني / يناير ١٩٨٠ ، صفر الخير ١٤٠٠ هـ) ، ص ١٦٤ ـ ١٨٨ ؛ « نحو استعراب جديد : مجلة الادب العربي » **الموقف الادبي** (دمشق) ، العددان ١٠٧ ـ ١٠٨ (آذار / مارس ـ نيسان / ابريل ١٩٨٠) ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٥ ، و« سفراء دون اعتماد : مؤلفون عرب » **المعرفة** (دمشق) ، السنة ٢٢ ، العدد ٢٥٥ (ايار / مايو ١٩٨٣) ، ص ٢٠٧ .

الاستشراق اليوم يخضع لعملية نقد اساسية من قبل المستشرقين انفسهم . وإذا كانوا هم أنفسهم - او جملة صالحة منهم وخاصة من المستشرقين الشباب - لا يعتقدون بعصمة هذا التقليد الثقافي العريق ويعملون مباضعهم فيه ليطهروه من الكثير مما علق فيه من اهواء ونزعات وتضمنات عرقية وعنصرية وايديولوجية ، فإن من الغفلة حقاً ان يقبله الداخليون هكذا دون تمحيص .

وحتى لا يكون الحديث عن امر كهذا حديثاً نظرياً بحتاً ، فإنني اود ان اشير الى مثال قريب العهد هو كتاب ألفه مستشرقان لامعان هما باتريشيا كرونة ومايكل كوك تحت عنوان **الهاجرية : صنع العالم الاسلامي** يمكن وصفه بأنه تمرين فكري عابث وعديم الجدوى ، اذا ما أحسن الظن به ، او بأنه تهجم اكثر ما يكون بعداً عن اللباقة والتهذيب على جوهر العقيدة الاسلامية ، واستعراض عضلات منهجي على غاية من نقص الحساسة الانسانية اذا ما نظر اليه نظرة غير متعاطفة . فهما يكتبان مقدمين كتابهما : « إن العرض الذي نقدم لاصول الاسلام ليس ذلك الذي يستطيع ان يقبله اي مؤمن ... لقد كتب هذا الكتاب لكفرة ومن قبل كافرين ، واقيم على ما يجب ان يبدو من منظور اي مسلم انه تقدير مغالٍ فيه لشهادة مصادر الكفرة »(٣٠) .

والواقع ان ما يروّع في هذا الكتاب هو **الانتقائية المغرضة التي تسود اختيار مادته ، وتحكم محاجته** . ففضلاً عن إهمال المؤلفين غير المسوغ لمراجع اساسية في التاريخ الاسلامي بعضها لمستشرقين معروفين بطول باعهم في حقل الدراسات التاريخية الاسلامية ، فإنهما لا يثقان مطلقاً بالمصادر الاسلامية وهكذا يكتبان :

« من المعلوم تماماً ان المصادر الاسلامية ليست مبكرة بشكل يمكن التدليل عليه ، وليس هناك اي دليل صلب على وجود القرآن في اية صورة قبل العقد الاخير من القرن السابع ، كما ان الحديث الذي يضع هذا الوحي الغامض في اطاره التاريخي لم يخضع للتمحيص قبل منتصف القرن الثامن . وهكذا فإن تاريخية التراث الاسلامي خلافية الى حد ما : فبينما لا توجد اي اسس داخلية مقنعة لرفضه ، ليس هناك على قدم المساواة اية اسس خارجية مقنعة لقبوله . وفي مثل هذه الظروف فإنه ليس من المعقول ان يمضي بالطريقة المعهودة الى تقديم رواية محققة بشكل معقول للتراث كحقيقة تاريخية . ولكن ، وعلى النحو نفسه تماماً ، فإن المعقول اعتبار الحديث وكأنه دون مضمون تاريخي محدد ، والتأكيد على ان ما يفهم انه روايات للحوادث الدينية في القرن السابع غير ذي فائدة الا في دراسة الافكار الدينية في القرن الثامن . إن المصادر الاسلامية تتيح مجالاً رحباً لتطبيق هذه المداخل المختلفة ، ولكنها تقدم القليل مما يمكن استخدامه بأية طريقة حاسمة للتحكيم فيما بينها . وهكذا فإن الطريقة الوحيدة للخروج من هذه المعضلة هو المضي خارج التراث الاسلامي كله ، والبدء من جديد »(٣١) .

ويمضي المؤلفان خارج هذا التراث ويبدآن من جديد ، ويخرجان على الناس بقصة جديدة ، بل جد اصيلة في خيالها الجامح ، فالهاجرية او البديل الجديد للاسلام الذي يقترحانه والذي يتخذانه عنواناً للكتاب نسبة الى **هاجر** ام اسماعيل وزوج ابراهيم عليهم السلام ، والمقصود به هو الدين الاسلامي الذي يفضلان ان ينعتا اصحابه او اتباعه بالهاجريين Hagarenes او Hagarites واما النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم فهو شخصية اسطورية ، لفقها المهاجرون ، واما القرآن فهو نتاج مجهود الهاجريين الجماعي التراكمي ، واما الذي كان وراء هذه الاسطورة فهو المهدي عمر الفاروق

---

(٣٠) Patricia Crone and Michael Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1977), p. viii.

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٣ .

المخلص ، واما أساس هذه القصة فهو المصادر غير العربية والمعاصرة لظهور الدين الاسلامي والتي تشمل المصادر العبرية والسريانية والسامرية والنسطورية واليعقوبية والارمنية والقبطية وغيرها[٣٢] (وجميعها بالطبع كانت مناهضة للدين الجديد في ذلك الوقت) . ولما كانت « المصادر التي نستخدم تساعد على تحديد التوكيد الذي نموضعه ضمن الكل المعقد للعملية التاريخية »[٣٣] فليس من الغريب ان يستطيع المؤلفان ان يخرجا علينا بهذه القصة المبتكرة .

والمهم هو ان هذه القصة التي وصفها احد المستشرقين المنصفين بأنها **اضغاث احلام وضلال مبين** ، وأنها جديرة حقاً بأن تصبح **نسياً منسياً**[٣٤] ، وقد وجدت طريقها الى الناس ، وأنها بعد النقاشات التي أثارتها بين صفوف المستشرقين ، صدرت بطبعة ذات غلاف ورقي وان صاحبيها بعد نجاح محاولتهما الاولى قد تابعا مجهودهما فخرجت باتريشيا كرونة بكتاب آخر يحمل عنواناً موحياً هو ، **عبيد على الخيل**[٣٥] ، وخرج مايكل كوك بكتاب آخر هو **العقيدة الاسلامية المبكرة**[٣٦] ، وكلا الكتابين من نشر مطبعة جامعة كامبريدج ، وما ادراك ما اهمية ما تنشره هذه الجامعة .

ترى هل يظل اصحاب هذا الموقف او الخيار بعد اطلاعهم على عينة من هذا النوع من الاستشراق **المغرض المسف** على شيء من الاطمئنان لهذا التقليد وقبوله قبولاً اعمى ، لا اظنهم كذلك . وعلى اي حال فإن ثمة حدوداً للكسل الفكري الذي يمكن ان تعاني منه امة . وكذلك فإن المرء يأمل ان تكون **عقدة « الخواجة »** التي طالما شكا منها ، وشقي بها ، الكثيرون من المثقفين العرب قد اخذت طريقها الى الانحسار .

٣ ـ المواجهة الايجابية

ولكن ماذا عن الخيار الثالث ، والذي اود ان اعنونه **بالمواجهة الايجابية** لهذا التقليد الثقافي ، هذه المواجهة التي ينبغي ان تتسم بالوعي والمعرفة والحس النقدي والثقة بالنفس ؟

يبدو لي ان هذه المواجهة يجب ان تهدف الى قلب الاوضاع القائمة في الدراسات العربية ووضعها مرة اخرى على قدميها . فبدلاً من ان تكون الدراسات الاستشراقية الخارجية هي التيار الرئيسي المحدد ، والمرجع الاساسي لدراسة الثقافة العربية في حين تبقى الدراسات التي تقدم بها الداخليون هي الروافد ، يجب ان تصبح اسهامات العرب انفسهم هي التيار الرئيسي والمجرى المحدد ، في حين تصبح اسهامات المستشرقين هي الروافد .

وبالطبع فإن طموحاً كهذا ليس حلماً او مستحيلاً ، ولكنه كذلك ليس امراً سهلاً يمكن تحقيقه في عشية وضحاها . وهو كذلك ليس نوعاً من الرغبة المغرورة ، لأنه هدف مشروع اخلاقياً وعلمياً . فدارس

---

(٣٢) عبد النبي اصطيف ، « الهاجرية : بديل جديد للاسلام ،» **المعرفة** ، السنة ١٧ ، العدد ٢٠٤ (شباط / فبراير ، ١٩٧٩) ، ص ٢٠١ .

(٣٣) Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1981), p. 37.

(٣٤) الن جونز ، « الهاجرية ،» **المعرفة** ، السنة ١٧ ، العدد ٢٠٤ (شباط / فبراير ١٩٧٩) ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

(٣٥) Patricia Crone, *Slaves on Horses: The Evolution of the Islamic Polity* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1980).

(٣٦) Michael Cook, *Early Islamic Dogma: A Source-Critical Study* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1981).

الادب الانكليزي على سبيل المثال ، رغم تقديره لاسهامات الباحثين غير الانكليز في دراسة هذا الادب ، لا يمكنه الا ان يعتمد بشكل أساسي على اسهامات الانكليز انفسهم في دراسته له . واذا كان هذا الامر مسوّغاً ومقبولاً في دراسة الثقافات الاخرى ، فما الذي يمنع قيامه في الثقافة العربية اذا ما توافرت التسهيلات والعزيمة والصبر وبعد النظرة والرغبة الصادقة .

ولكن كيف الوصول الى هذا الوضع الذي يطمح اليه كل دارس عربي غيور ؟

يتراءى لي ان ثمة خطوات مختلفة على المدى القريب والبعيد يمكن ان نبدأ بها ، ويمكن ان تقودنا الى الوصول الى هذا الطموح ، وبالطبع فإن هذه الخطوات هي مجرد اقتراحات شكلتها أساساً التجربة الشخصية لصاحب هذه السطور ، وهي تجربة ، مهما بولغ في اهميتها ، لا تزال محدودة في اطار المقدرة الانسانية للفرد العربي في ظروفنا الحالية . ولذلك فإن دارسين آخرين يمكن ان يقترحوا خطوات اخرى يرونها افضل واسرع للوصول الى الهدف ذاته؛ وهو ان ينهض العرب الداخليون بدراسة ثقافتهم وادبهم وحضارتهم ، وان يصبحوا الحجة الاولى والمصدر الاساسي الذي ينهل منه الآخرون في معرفتهم لهذه الثقافة وذاك الادب وتلك الحضارة. او اذا ما شئنا استخدام كلمات د. الخطيب : « عند ذلك يمكن ان نضع الاستشراق قديمه وحديثه في الموضع الذي يستحقه ، اي بوصفه رافداً يصب في بحر الدراسات العربية المتمكنة الواثقة من القيمة العلمية لما تقدمه ، وليس بديلاً عنها بأي حال من الاحوال »[٣٧] .

أ ـ في البدء كانت المعرفة : ربما كانت اولى خطوات هذه المواجهة الايجابية التعرف على موضوع هذه المواجهة ، اي النتاج الاستشراقي . فدون المعرفة المتبصرة ، المميزة للغث من السمين في هذا التقليد الثقافي ، ليس ثمة امل في ان تقوم اية مواجهة ذات جدوى .

وبالطبع فإن طرق التعرف على هذا التقليد كثيرة منها على سبيل المثال تخصيص دورية او عدة دوريات لمتابعة جوانب نشاطاته المختلفة ؛ ومنها اعداد الدراسات والمسوح والتقارير عن وضع الدراسات الاستشراقية في الدول الاجنبية المختلفة ، في مختلف حقول المعرفة المتصلة بالعرب ؛ ومنها تخصيص جزء من الدوريات العربية المعنية لمتابعة آخر تطوراته ومراجعة آخر ما يصدر عنه من كتب ومجلات ونشرات ؛ ومنها الترجمات بمختلف انواعها ؛ ومنها الزيارات المباشرة لمراكز هذا الاستشراق والاطلاع عن كثب عما يجري فيها والاحتكاك المباشر مع القائمين على مؤسساته . والمهم في الامر هو عدم دفن الرأس في الرمال ، والقيام بتتبع ما ينجزه هؤلاء الخارجيون ، والنظر في مجالات الفائدة التي يمكن أن يعود بها على العرب في مختلف النواحي .

ب ـ المشاركة : وثانية هذه الخطوات هي المشاركة في مختلف فعالياته ونشاطاته ، هذه المشاركة التي تحمل معها ، بالاضافة الى تعميق معرفتنا بهذا التقليد ، فائدتين مهمتين :

اولاهما : لفت نظر العاملين في ميدان الاستشراق الى ما يقوم به الداخليون من نشاطات وابحاث لا يحسنها غيرهم ولا يستغني الخارجيون عنها ، والى اسهامات هؤلاء الداخليين في مختلف الجوانب المتصلة بالحياة العربية قديمها وحديثها ادباً وثقافة وتاريخاً وحضارة .

---

(٣٧) الخطيب ، « الاستشراق في ثوب جديد » .

وثانيتهما: خلخلة معاييره ومقاييسه الداخلية التي اكل الدهر عليها وشرب . فمع ازدياد اسهامات الداخليين الى هذا التقليد ، تنبثق مفاهيم جديدة ، ومعايير مستويات مختلفة عما هو سائد في ميدان الاستشراق نتيجة طبيعته الخارجية . وعندها فإن اسهامات هؤلاء الخارجيين لا تقاس ولا تقوَّم بالمقارنة مع ما ينتجه امثالهم فقط ، بل مع ما ينتجه الداخليون ايضاً . وبالطبع فإن من الاهمية بمكان ان تكون مساهمة هؤلاء الداخليين من الجدية والرصانة والتوثيق والكفاءة بحيث تبز نتاج الخارجيين .

والمشاركة هذه يمكن ان تتخذ اشكالاً عدة منها :

ـ النشر في الدوريات الاستشراقية باستمرار ، وباللغات الاستشراقية ذاتها . ويمكن التغلب على صعوبات الكتابة بلغة اجنبية عن طريق اللجوء الى الترجمة . فليس ثمة ما يمنع من ترجمة الاسهامات العربية الى الانكليزية والفرنسية وغيرها من اللغات ، ومن ثم نشرها في الدوريات الاستشراقية اذا ما كانت على مستوى مقبول ، مثلما يمكن ان يحدث العكس .

وكذلك فإن عدداً لا بأس به من الداخليين يتقنون الكتابة باللغات الاجنبية ، ومن الاهمية بمكان تشجيعهم على النشر بهذه اللغات بل ربما تفريغهم لهذه المهمة .

ـ المشاركة الفعّالة في المؤتمرات والندوات التي تقام حول الشؤون العربية في مختلف انحاء العالم والتي تساهم المؤسسات الاستشراقية في الاشراف عليها او تنظيمها او الاعداد لها . ومن الضروري التشديد هنا على مسألة توفر الكفاءة والجدية في صفوف المشاركين فيها من الداخليين .

ـ نشر الكتب والرسائل العلمية والترجمات باللغات الاجنبية . صحيح ان الاصل هو ان يترجم ما هو صالح مما يصدر بالعربية الى اللغات الاخرى ، وان يقوم بهذه الترجمة الخارجيون انفسهم اذا ما شعروا بالحاجة الماسة له ، والضرورة الملحة لمراجعته وتبينوا الفائدة المرتقبة منه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع في حال توفر هذه الدراسات او من يقوم بها من نشرها باللغات الاجنبية، واتاحة فرصة قراءتها لعدد اكبر من القراء للافادة منها .

وكذلك فإن كثرة من الدارسين العرب قد انهوا دراساتهم في الجامعات الاجنبية ، وقدموا رسائل باللغات الاجنبية ، وبسبب جملة من العوامل لم تتح الفرصة لهذه الرسائل ان تنشر ، وذلك ان النشر في كثير من الاحيان مسألة تجارية بحتة ، وابحاث كهذه محدودة السوق لا تغري بالنشر . إن محاولة اصدار هذه الرسائل بعد اعدادها وتحريرها على شكل كتب باللغات الاجنبية امر مهم ، بل إنه ربما يشكل خطوة من اهم الخطوات في زعزعة القيم الداخلية للاستشراق .

ج ـ النقد الواعي : وهو على نوعين : **نقد الداخليين** له وذلك من خلال مجالات المشاركات التي قدمتها ، ومن الضروري ان يكون هذا النقد نقداً موضوعياً علمياً بعيداً عن التهجم الشخصي او الطعن ؛ **ونقد الخارجيين الذاتي لتقليدهم** ، إذ ان من الاهمية بمكان تشجيع هذا النقد ونشره والأخذ بيد أصحابه .

وربما كان يحسن بالمرء في هذا السياق ان يشير الى ان من اكبر الخدمات التي قدمها كتاب ادوارد سعيد لهذا التقليد انه فتح عيون اصحابه على حقيقة طالما اغفلوها ، وهو انهم بشر وانهم يخطئون ، وان ثمة عالماً يتطور باستمرار من حولهم في مختلف الميادين وانهم ينبغي ان ينفتحوا عليه ، ويطوروا هذا التقليد الذي ازرت به الابعاد الايديولوجية والسياسية ، والاهم من ذلك انه شجع

المتنورين منهم على نقد الآخرين ممن سلبهم هذا التقليد حريتهم وإرادتهم كباحثين . لقد مضى زمن لم يكن يجرؤ فيه اي مستشرق ان ينتقد غيب ، او برنارد لويس ، او فون غرونباوم ، او شاخت ، او ماسينيون او غيرهم . ولكن اي متتبع لما ينشر في دوريات الاستشراق يستطيع ان يلاحظ ان هؤلاء لم يعودوا كما كانوا بعيدين عن متناول النقد ، وان افكارهم وآراءهم غدت عرضة للتفحص والمراجعة والنقض والتفنيد والرد .

لقد **خلق كتاب سعيد جواً صحياً في ميدان الاستشراق** . ومن المفارقة حقاً انه لم يجز الجزاء الذي يستحق على هذه الخدمة الجليلة التي أداها لهم وهو الخارجي البعيد عن هذا التقليد ، بل راح بعضهم (بمن فيهم بعض العرب) يتسقط عثرات كتابه ويهاجمه بعنف حيناً وبشراسة حيناً آخر وبانفعالية محمومة حيناً ثالثاً ، وما ذلك الا لأنه فجعهم بواقع حالهم اذ فتح عيونهم على هذه الحقيقة وهي ان الشرق **الذي يدرسونه ، ويكتبون حوله ، ويناقشون شؤون اهله ، بعيد جداً عن الشرق الحقيقي** . انه مجرد تصور خلقوه ، وعاشوا معه ، وصحبوه طويلاً ، والطريق التي سلكوها منذ ان خلق الاستشراق حتى اليوم لن تقودهم الى شيء[٣٨] .

د ـ تشجيع المؤشرات الايجابية في النتاج الاستشراقي الجديد : وهو الذي ينتجه الجيل الجديد بشكل خاص والذي حاول ان يزعزع روابطه بهذا التقليد ، هذه المؤشرات التي تتمثل في الاهتمام بدراسة الأدب العربي اهتماماً يستند الى اعتبارات ادبية وفنية خالصة وليس لاسباب خارجية عنه ، او في الاهتمام بالبيبليوغرافيا الاجنبية والعربية ، او في تطبيق المناهج والمداخل الحديثة في الدراسة وخاصة المقارنة والمتداخلة المعارف Interdisciplinary منها ، او الدراسات المتخصصة الدقيقة والدراسات الميدانية .

ويمكن للتشجيع ان يأخذ اشكالاً كثيرة منها تسليط الاضواء على هذه المؤشرات والاهتمام الجدي وذو الجدوى بمن وراءها ، عن طريق ترجمة نتاجه الى العربية ، ودعوته الى المؤتمرات والندوات التي تنظم في الوطن العربي ، وإتاحة التسهيلات الممكنة له ، ومساعدته بشتى الوسائل حتى لا يبقى صوتاً وحيداً ، وخاصة ان هذه الاصوات تكاد تكون وحيدة وخافتة في كثير من الاحيان ، وتتعرض باستمرار لشتى انواع النقد من الاتهام بعدم الموضوعية او المماالأة وغير ذلك .

البديل او خلق تقليد مكافىء

والواقع ان كل ما تقدم من خطوات لا يكفي ، لأنه إنما يعالج المشكلة على المدى القريب، ولا يحقق الهدف البعيد الذي نسعى اليه ، وهو خلق تقليد مكافىء في القيمة والمستوى يستطيع ان يحل محل الاستشراق ، اي خلق البديل لهذا التقليد الاشكالي.

ومن هنا فإن ثمة خطوات اخرى لا بد منها على المستوى البعيد ، سأحاول ان أوجزها غاية الايجاز بسبب ضيق المجال المتاح . ولعل الفرصة تتاح لمناقشتها بشكل افضل في دراسة مستقلة . وربما كان من اهم هذه الخطوات ما يلي :

---

(٣٨) انظر تقديم عبدالنبي اصطيف « الاستشراق » الذي مهد به لدراسة البرت حوراني لكتاب **الاستشراق** : « الطريق الى المغرب : قراءة في الاستشراق »، **التراث العربي** (دمشق) ، السنة ٢ ، العدد ٧ (نيسان / ابريل ١٩٨٢) ، ص ١٦٣ .

ـ النهوض بمستوى الدراسات العربية بشكل عام مادة و إخراجاً : لا اظن ان ثمة من يماري في ان الكثير مما ينشر في دورياتنا ، ومما تخرج به مطابعنا على الناس لا يقوى الا بشق النفس على مزاحمة نتاج الامم الاخرى في اية مكتبة تهتم بالنوعية دون الكمية . وهو بالتأكيد لن يقوى مع تحدي الزمن الآتي لأن زَبَدَه كثير ، وما ينفع الناس فيه يكاد يكون كآوى الذي لم نر منه الا ابنه .

ولا شك ان ثمة اسباباً مختلفة تكمن وراء تدني مستوى الدراسات العربية جملة ، فالباحثون العرب على وجه الاجمال لا يتاح لهم التدريب الكافي لكتابة الابحاث العلمية ، وكثرة منهم تعتمد مبدأ المحاولة والخطأ والتجربة الشخصية التي تكتسب عن طريق الممارسة وحدها .

وكذلك فإن وسائل البحث العلمي الجاد كالمكتبة الجيدة المزودة بـالفهارس والمعـاجم والكتب المساعدة وآلات التصوير وآلات قراءة الافلام والحواسب الآلية وغير ذلك لا يكاد يتوفر على الغالب لهؤلاء الباحثين .

واكثر من هذا فإن معظم باحثينا غير متفرغ ، اذ ان أغلبهم ينفق معظم وقته في طلب الرزق بالتدريس او بالعمل الاداري او الوظيفي ، ولا يكاد يتاح له الوقت الكافي لانتاج عمل علمي ممتاز ، يحتاج اول ما يحتاج الى فراغ في الوقت والنفس معاً لا يتوفر لجلّ دارسينا .

ورغم ان المرء يقدر هذه الاسباب والصعوبات الخارجة عن سلطان الدارسين العرب انفسهم والتي لا سبيل الى تجاوزها دون خلق مؤسسات للبحث العلمي في مختلف ميـادين العلوم النظـرية والتطبيقية والانسانية بشكل خاص ترعى القيام بمهمات التاريخ لثقافتنا وحضارتنا وادبنا ، ودراستها وتحليلها ومناقشة القضايا المتصلة بها ، فإنه لا يمكن له من جهة اخرى ان يغفل عن نقطة مهمـة وحيوية ينبغي مراعاتها إذا ما اريد لهذه الدراسات ان ترتفع الى المستوى المطلوب منها في ظروف كظروف الامة العربية .

إن الدراسات العربية تفتقر اليوم في مجملها الى مبدأ الانطلاق في كل بحث او مشكلة او قضية من النقطة التي وصل اليها الآخرون الذين سبقوا الى معالجتها . اذ ان اغلبها ينطلق من نقطة الصفر .

وقد يعزو بعضهم اسباب هذا القصور الى كاتبي هذه الدراسات ـ وربما كان على حق في هذا ـ والى أنهم لا يعيرون ما اسهم به غيرهم في هذا الميدان او ذاك ادنى اهتمام . وهذا بعض الحقيقة ، لأنهم ينسون ان نقطة البدء في اي بحث هي مراجعة البيبليوغرافيا الخاصة به ، ومعرفة ما كتب عنه ، وبالتالي محاولة الاستفادة من هذا الذي كتب وتطويره والوصول به الى نتائج متقدمة .

ولا شك ان البدء بإعداد بيبليوغرافيا شاملة ومستقصية للموضوعـات المختلفة التي تتصـل بجوانب الثقافة العربية والتاريخ العربي والحضارة العربية والادب العربي امر حيوي ومهم اذا ما أريد للدراسات العربية ان تحقق قفزة نوعية في ميدانها ، لأن التقدم الذي احرزته الدراسات العربية في الغرب والمكتوبة بمختلف اللغات إنما تحقق لها بتطبيق مبدأ متابعـة البحث من النقطة التي انتهى الآخرون اليها وليس من نقطة الصفر. وبالطبع فإن هذه المتابعة ما كان لها ان تتم لولا وجود بيبليوغرافيا خاصة بكل موضوع .

« إن القيام بهذا العمل امر على غاية من الضرورة ، الا اذا اردنا ان ندور في مكان واحد لا نبرحه ، وان نقنع بمسخ

مـا ينتجه الآخـرون ونسخه ، والحيـاة عالـة عليهم حتى عندمـا يتعلق الامر بقضيـة البحث عن ذاتنـا الثقـافيـة او اكتشافها »[٣٩] .

ـ **توفير التسهيلات الضرورية لقيـام بحـث علمي عربي** : وربما كان في طليعة هـذه التسهيلات **المادة ـ المصدر ـ** التي تشمل الكتاب ، والدورية ، والنشرة ، والاوراق الخاصة والوثائق الرسمية وغير الرسمية ؛ **ومراكز البحث والدراسة** ، وذلك إضافة الى **توفير المنح والمكافآت للباحثين ورفع مستواهم المعيشي وتفريغهم** بدل الاثقال عليهم بالاعباء الادارية والتدريسية ، وغير ذلك مما يشكل القاعدة التي لا غنى عنها لقيام بحث عربي ينتمي للعصر الذي نعيش فيه بدل العيش عالة عليه .

ـ **تحسين مستوى تعليم اللغـات الاجنبية** : إن رفـع مستوى تعليم اللغـات الاجنبية في الجامعات العربية بشكل عام ونشرها ضمن صفوف االباحثين لأمر ضروري بالفعل . والواقـع انه إضافة الى متطلبات استقصاء المادة العلمية ، فإن القراءة بلغة اخرى تخلق في نفس الباحث نوعاً من الرقابة على مستوى ما يكتب ، إذ انه عندها لا يقيسه فقط بما يكتب في تراثه وثقافته في الموضوع الذي يطرقه ، بل بما يكتب باللغات الاخرى ايضاً . واذا ما امل المرء ان يكون كل الباحثين على درجة كبيرة من الطموح في رفع مستوى دراساتهم ، فإن هذه المعرفة تغدو حافزاً مستمراً للباحث على تطوير نفسه ، وبالتالي على تطوير التقليد الثقافي الذي ينتمي اليه كدارس .

وفي الخاتمة لا يسع المرء الا ان يؤكد ان هذه الملاحظات هي من قبيل المقترحات التي حفزتها التجربة الشخصية لصاحب هذه السطور ، وهي دون شك طموح مشروع اذا ما حاولنا ان نعمـل لتحقيقه . فقل اعملوا ، وإن غداً لمن يعمل له لقريب □

---

(٣٩) عبد النبي اصطيف ، « ما زالت الدراسات العربية تدور في فلك الاستشراق ،» **الدستور** ، السنة ١٠ ، العدد ٤٧١ (لندن ١٤٢) ، (١١ ـ ١٧ ، ١٩٨٠) ، ص ٦٢ .